

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وخاتم النبيين سيدنا محمد قدوة أهل الحق واليقين وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد : فبالرغم مما يلاقه الباحث في فلسفة ابن رشد من مشقة وتعب ، وما يصادفه من عقبات أو يعترضه من أشواك ، فأننا نرى أن هذه الفلسفة أولى بالدراسة وأحوج إلى البحث ، واستنباط مسائلها ، واستخراج مميزات وعناصرها من أى طور آخر من أطوار التفكير الإسلامى . فقد توفر لهذه الفلسفة من المميزات ما لم يتوفر لغيرها فى أى عصر من عصور الإسلام ، ففى أحضانها بلغت فلسفة أرسطو رشدها ، وعلى يديها نضجت وخلصت من شوائب الخلط والتزييف الذى وقع فيه فلاسفة الإسلام المتقدمون . كذلك كانت هذه الفلسفة حلقة الاتصال بين الفلسفة الإسلامية والشعوب المسيحية فى أوروبا ، وبواسطتها عرف المسيحيون أول منبع من منابع ثقافتهم ، وعثروا على النواة الأولى لنهضتهم وحضارتهم .

وقد كان من حسن حظ ابن رشد أن جاءت فلسفته آخر حلقة من حلقات تفكير المسلمين مما ساعده على الإلمام بمؤلفات المتقدمين منهم ، وجمع مذاهبهم ، ودراسة تعاليمهم ، والتوفيق بين آرائهم ، وتقريظ بعضها ونقد البعض الآخر ، حتى كانت نتيجة ذلك كله أن اختلطت أفكارهم بأفكاره ، وامتزجت آثارهم بآثاره ، وأصبحت المعارف الإسلامية وغير الإسلامية منصهرة فى بوتقة ذهنه ، يستخرج منها ما شاء من الصور ، ويصبغها بما أراد من مختلف الألوان ، ويوجهها حسبما يرى وكيفما يريد .

وربما كانت تلك الصعوبة التى سببها ندرة المراجع العربية وقلة الكاتبين فى فلسفة ابن رشد وعدم سيره فى تأليفه على تفصيل وتبويب علمى واضح من أهم الدوافع لنا

على إشار هذه الفلسفة ، وتخصيص ناحية من نواحيها بالبحث والتحليل ، فإن إغلاق الموضوع وصعوبة مسالكه لا ينبغي أن تحول الباحثين على الأحكام عنه ، أو تهيب الكتابة فيه تجنباً للنصب وتفادياً للتعقيد ، إذ مهمة هؤلاء السامية أولاً وقبل كل شيء هي تذليل الصعاب ، ومعالجة المشاكل على قدر طاقة العقل الإنساني ، وتيسير الطرق للسائرين ، وليست مهمتهم السير في طريق معبد ومسلك رحب فسيح .

وإذا كانت أولى غايات العلم — كما يقولون — هي استنباط المجهول من المعلوم ، وتوليد الحقائق بعضها من بعض فأحرى أن تكون قدرة الباحثين على ذلك الاستنباط في تأييد حقيقة أو نقض أخرى هي وحدها المقياس الذي تقاس به جهودهم ، ويحكم به على نتائج أبحاثهم ، وأهداف آرائهم .

وربما يختلف الحكم على فلسفة أى فيلسوف باختلاف وجهات نظر الباحثين في تفكيره ، أو في أى ناحية خاصة من نواحي ذلك التفكير ، وبمقدار ما ينهض من الأدلة والأسانيد على وجهات النظر هذه تكون نسبة تلك الأحكام إلى الخطأ والصواب ، وهذا ما كان من أمر الباحثين إزاء فلسفة ابن رشد ، فقد كان لما تتمتع به هذه الفلسفة من رحابة الأفق وسعة المحيط أثر في توجيه الباحثين فيها ، وفي اختلاف أحكامهم عليها .

فريق يرى مهمته مجرد شرح وتوضيح لآراء السابقين ، وآخر يراه موقفاً فحسب بين الفلسفة والدين ، وثالث يضعه في صفوف الملحدّين ، ثم بجانب هؤلاء جميعاً فريق آخر يجعله نحر المسلمين ، وقدوة المؤمنين .

على أن جملة هذه الأحكام تنحصر في دائرة واحدة أو تشترك كلها في حكم واحد هو أن فلسفة ابن رشد لم تكن إلا ترديد الصدى لفلسفة أرسطو ، وتقليداً له في كل ما رآه واعتقده ، وعلى ذلك لم يكن لابن رشد مذهب فلسفى خاص ، وإنما كان شارحاً وموضحاً ومردداً لآراء أستاذه وشارحيه .

ولاشك أن في هذا الحكم كثيراً من الغلو والأجفاف بحق ابن رشد ، وإنكاراً لسمو عبقريته ، ونضوج تفكيره ، فإن الناظر في فلسفة ابن رشد على سعة أفقها ، وتراعى أطرافها ، وتنوع عناصرها ، يجدّها منحصرة على الإجمال في منهجين أساسيين :

١ - منهج توفيق تركيبي .

٢ - ومنهج تحليلي نقدي .

فالمهـج الأول يصور لنا محاولات ابن رشد في التوفيق بين الدين والفلسفة ، وقد أفرد لذلك كتابه : « فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال » وربما كانت مقالته في « أن ما يعتقده المشاؤون ، وما يعتقده المتكلمون من أهل ملتنا متقارب في المعنى » تتصل بهذا الغرض نفسه .

أما المهـج الثاني فتصوره لنا ردوده المختلفة على فلاسفة الإسلام ومتكلميـه ، وشروحه لكتب أرسطو ، وانتقاده لكثير من آرائه وآراء من جاء بعده من الشارحين والمفسرين . ورغم أن البارون « كراديفو » قد أهل الإشارة إلى تلك الطريقة النقدية عند كلامه عن شرح ابن رشد لكتب أرسطو فأننا نعتقد أن هذه الطريقة هي الصفة الأساسية التي تمتاز بها فلسفة ابن رشد على غيرها ، إذ تراه يتناول كلام خصومه بالناقشة والتفنيد ، ثم يبين مركزه وقيمه بين الأقاويل ، وهل هو سوفسطائي أو خطابي أو جدلي محددًا درجته في مراتب الجدل ، ويخلص من ذلك كله بنتيجة هي قصور أكثر هذه الأقاويل عن مرتبة العلم الصحيح وهي مرتبة اليقين والبرهان ، ولا يفوته أن يبدى في غضون ذلك الشرح والتحليل آراءه الخاصة ، إما تصريحًا ، أو تلويحًا ، حسبما تقتضيه طبيعة المسألة التي يدور البحث حولها .

ولما كانت هذه الطريقة ترمي إلى تجريد كل رأى عن شتى الاعتبارات ، وإزالة جميع صور التفكير أمام النظر منزلة واحدة ، وتنطوى على ثقة تامة بالعقل الإنساني ، والتحرر من قيود التقليد والمحاكاة ، فقد أوصلت ابن رشد إلى طائفة من المسائل الفلسفية العميقة ، التي اعتمد فيها على خالص فكره ونافذ رأيه .

ولست أقصد في هذا البحث إلى الكلام عن فلسفة ابن رشد في شتى نواحيها ، والتصدي لإبراز مظاهر التجديد في مذهبه ، وإن ذلك مما لا يتفرد به بحث كهذا . وإنما سأنتجـه في بحثي هذا اتجاهًا خاصًا ، أتناول فيه ظاهرة واحدة من ظواهر هذا التفكير الحر والنظر المستقل ، وهي « نظريته في الخلود وصلتها برأيه العام في وحدة الوجود » .

وقد بحثني على أن أهدف إلى هذا الغرض دون سواه من أغراض تلك الفلسفة :
أولاً : ما رأيته من غموض مشكلة الخلود عند ابن رشد ، وعدم البت فيها برأى
قاطع من الباحثين ، والمفكرين .

وثانياً : ما كان لرأى ابن رشد في وحدة العقل التي هي مظهر من مظاهر وحدة
الكون من أثر بين ونفوذ قوى في الأوساط المسيحية الأوروبية حتى اعتنق هذا
الرأى كثير منهم وأعجبوا به مما أثار حافظة كبار اللاهوتيين المفكرين منهم ، فقد
قام القديس « توماس الأكويني » بوضع رسالة في « وحدة العقل » ، رد فيها
على ابن رشد وفند رأيه في ذلك . وإنما كان ذلك لأن هذه النظرية لم تكن معترفاً
بها من وجهة النظر الدينية عند المسيحيين

وثالثاً : أن هذه الوحدة العامة ، لتفرق شواهدا في ثنايا فلسفته ، لم تتجه
إليها أنظار دراسية ، ولم يضعوها في صفوف نواحيه البارزة رغم ارتباطها بمعظم
عناصر تلك الفلسفة ، ومساسها بأغلب مسائلها ، وبروزها في أقواله عن أى مسألة
من تلك المسائل . تلك هي أهم الدوافع التي حدت بي إلى تخصيص هذه
الناحية بالبحث .

أما غايتي من هذا البحث فهي محاولة الفصل في مشكلة الخلود على ضوء ارتباطها
بوحدة العقل ، وتحقيق تلك الوحدة مستنبطاً شواهدا وأسانيدها من كلام
ابن رشد نفسه .

ولعلنا نلاحظ أن هذا الهدف يستتبع أهدافاً أخرى رئيسية ، فسنضطر في طريقنا
إلى إثبات الوحدة العامة في مذهب ابن رشد ، ثم إلى إثبات وحدة العقل الإنساني
كنتيجة لتلك الوحدة العامة ، ثم التدرج من ذلك إلى رأى ابن رشد في الخلود
كنتيجة لرأيه في وحدة العقل الإنساني .

وإذا فأهدافنا على طريق الإجمالي والتدرج هي : —

تحقيق رأيه في وحدة الكون ، وفي وحدة العقل ، ثم شرح مشكلة الخلود ،
ومحاولة حلها على ضوء ذلك .

ولعلنا كذلك نلمس من هذا أن مشكلة الخلود متعلقة بوحدة العقل ، وهذه
بدورها متعلقة بوحدة الوجود ، ولا يمكننا أن نتناول رأيه في وحدة الوجود إلا إذا

ألمنا بفكرته في ذلك الوجود ، ثم برأيه في الإله ، ثم بتفصيل العلاقة ، وتوضيح الصلة بين الإله والوجود .

ولما كانت دراسة أى نظرية من نظريات الفيلسوف لا تتيسر على وجه أكمل ، ومن طريق أوثق إلا بعد دراسة شخصيته ، والوقوف على ظروف نشأته ، وتحديد موقفه من ثقافة عصره وسابقه ، لما كان ذلك كله من ضرورات البحث ، كان لا بد لنا من دراسة بيئة ابن رشد وعلى الأخص من الناحية العقلية ، والترجمة له ، وبيان مواقفه المختلفة من الفلاسفة والمتكلمين ، ليتضح لنا كيف شق ابن رشد طريقه الخاص ، واتجاهه المعين بين تلك المعارف وهذه الاتجاهات .

لهذا وذاك رأيت أن أرتب هذا البحث بعد المقدمة على أربعة أبواب وخاتمة ، ولجأت إلى تقسيم هذه الأبواب إلى فصول يتضمن كل فصل منها الكلام على مسألة من المسائل التى تندرج تحت موضوع البحث فى هذا الباب .

وسأشوق بعون الله وحسن توفيقه — طريقى إلى غايى فى هذا الاتجاه ، متعرضاً لما قد يصادفنى فى هذا الصدد من مسائل ، وإن فى أسهاب وبسط ، وإن فى أجمال وإيجاز على حسب ما تقتضيه ظروف البحث وطبيعة الموضوع .

والله أسأل أن يوفقنى بتأييده ، وأن يشملنى برعايته وتسديده ، وأن يلهمنى الحق والصواب ، حتى أكون قد وفيت بواجب العلم ، وقت بمهمة الباحث ، التى رخصها الأمانة ، وشعارها الحق ، ورأئدها الفكر والأخلاص ، أنه على ما يشاءقدير .

محمد بيصار

« أستاذية » بامتياز فى الفلسفة وعلم الكلام
ودكتوراه فى الفلسفة من جامعة « أدنبرة »
ومدرس بكلية أصول الدين

القاهرة { ٥ من ربيع الأول سنة ١٣٧٣
١٢ نوفمبر سنة ١٩٥٣